جماليات المجاز المرسل
في نهج البلاغة

م.د. حيدر أحمد حسين الزبيدي
جامعة ديالى
كليّة العلوم الإسلاميّة
قسم الشريعة

جماليات المجاز المرسل في نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الهدف الأساس من هذه الدراسة بيان القيم الجمالية التي ينطوي عليها نهج البلاغة من خلال ارتياد آفاقه الواسعة وإثراء الدرس البلاغي بأشكال جديدة ، وصور طريفة لم تكن موجودة في الكتب الأُخرى ، بل تميّز منها النهج دون غيرها من المؤلفات الأدبية .

والإمام قد برع في استعمال الألوان البلاغية في منظومة كلامه خير براعة حتى كأن هذه الألوان تتسابق إلى فكره الواحدة تلو الأخرى ؛ لتحجز مقعدها بين تلك الموضوعات التي تخص أمور الحياة الدينية والدنيوية ، وواحدة من تلك الألوان البلاغية (المجاز المرسل) بأقسامه المتعددة ؛ لما له من أهمية كبيرة ، ومنزلة رفيعة استعمله في مواطن عدة دون أن يفسد النص أو يخل في معناه ، بل جاء به من أجل أن يكون ممثلاً عن أفكاره وتطلعاته ورغبته في صلاح الناس ، ومظهراً للتعبير عن رقي كلامه وجمال معانيه ، ولذلك كانت الدراسة تحت عنوان (جماليات المجاز المرسل في نهج البلاغة) .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحا لذكره ، وسببا للمزيد من فضله ، ودليلاً على الآئه وعظمته ، وصلى الله تعالى على أكرم أنبيائه وخلقه أبي القاسم محمد ، وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار من بعده .

أمّا بعد :

فكثيرة هي مواطن الإبداع في فضاء النصوص الأدبية ، ولعل السبب في سرِّ خلودها على مرِّ الأزمان يتمثل في فاعليتها الأدبية الحاصلة بوساطة مضامينها الفنية التي تحاكي النفس البشرية ، وتعالج الكثير من قضاياه الإنسانية ، ولهذا نرى أن الباحثين وقفوا كثيراً عند لوحات أولئك المبدعين متأملين ومحللين تلك الشفرات التي استعملها الكتَّاب في مضامين لوحاتهم الإبداعية .

والقيم الجمالية إذا ما وجدت في نصّ ما فهذا يدل على قوة الذائقة الأدبية عند منشئه وذلك بفضل سبك ألفاظه وإحكامه لمعانيه التي جعلها تتناقل على الألسن على مدى أجيال عدّة لا تؤثّر فيها عوامل التعرية التي تتركها الكتابات الأخرى ، وهذا ما نراه في النصوص العلوية ، فهي تفيض بالجمالية في مختلف موضوعاتها التي تطرحها تلك النصوص ، لاسيَّما الجوانب البلاغية التي تميّزت بها عن غيرها من المؤلفات البلاغية ؛ من أجل أن تعطي الهدف المنشود من إنشائها

ولذلك قرّرنا أن نضع يدنا في الدراسة على تلك النصوص باحثين عن لون بلاغي طالما استعمله الإمام في مناسبات عدة ، وبأشكال مختلفة هو المجاز المرسل مع علمنا المتواضع بندرة الدراسات عنه فيمن درس نهج البلاغة ، ليكون العنوان (جماليات المجاز المرسل في نهج البلاغة) وتكون الدراسة وفق المنهج البلاغي ، واعتمدنا في دراستنا على جملة من المصادر والمراجع التي اغنت البحث ، فكان التمهيد بعنوان : بين

المجاز المرسل والنهج العلوي ، ثُمَّ قسمنا الدراسة على ستة مطالب كان الأول منها بعنوان : المجاز في إطلاق اسم السبب على المسبب ، والثاني: المجاز في إطلاق اسم المسبّب على السبب ، والثالث : المجاز في إطلاق اسم اللازم على ملزومه ، والرابع : المجاز في إطلاق اسم الملزوم على لازمه ، والخامس: المجاز في إطلاق الجزء على الكلّ ، والسادس : المجاز في تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه . ومن ثُمَّ الوصول لخاتمة البحث .

نأمل بهذا العمل المتواضع أن نفتح الأبواب لدراسات أخرى في المستقبل تكشف عن المضامين الجمالية ، والقيمة الفنّية للنصوص العلوية ، وتعطي بدورها سبباً آخر عن خلود تلك النصوص التي لا زال فيها الشيء الكثير الذي يستحقّ الدراسة والوقوف عنده .

والله الموفق

التمهيد: بين المجاز المرسل والنهج العلوي

قبل الدخول في فضاء البحث لنا وقفة عند حدود مصطلح المجاز في اللغة والاصطلاح ، ونمر سريعاً عند تطور المجاز المرسل عند القدماء دون أن نفصل القول فيه ، فهناك العديد من الدراسات تكفّلت بهذا الأمر ، ويمكن الرجوع إليها.

المجاز (لغة) :

إن لـ(جوز) أصلين : أحدهما قطع الشيء ، والأخر وسطه ، فأما الوسط (فجوز) كل شيء وسطه ، ومنه آخذت الجوزاء ، وسميت بذلك الاسم ؛ لأنها تعترض وسط السماء ، أما الأصل الأخر فهو جزت الموضوع أي : سرت فيه ، وأجزته خلقته وقطعته ، وأجزأته : نفذته[١].

ونقول جزت الطريق وجاز الموضع جوازاً . وجاز به وجاوزه وأجازه غيره وجازه وجاوزه وأجازه وأجاز غيره . وجازه : سار فيه وسلكه ، وجاوزت الموضع جوازاً بمعنى جزته . والمجاز : الموضع [٢].

المجاز (اصطلاحا) :

((كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز وأن شئت قلت : كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى مالم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعا لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز))[٣].

وهو غير (الحقيقة) ؛ لأنها تعرف بـ ((الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة كاستعمال الاسد في الهيكل المخصوص))[٤].

وإذا انعمنا النظر في البدايات الأولى التي رصدت المجاز المرسل على وجه الخصوص ترى أن أبا عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ) هو أقدم من تحدث عن المجاز المرسل من خلال لمحات دالة ، وإشارات عابرة إلى حقيقة المجاز المرسل في كتابه (مجاز القرآن) ، في

قولـه تعـالى : ﴿ **وَنَحـنُ نُسَـبِّحُ بِحمـدِكَ** ﴾ سـورة البقـرة: ٣٠ فقـال عـن معنـى (نسـبح) ((نصـلي تقول قد فرغت من سبحتي أي صلاتي))[٥].

وهذه إشارة إلـى علاقـة الجزئيـة حيث اطلـق التسبيح وهـو جـزء مـن الصـلاة علـى الصـلاة بجميـع أجزائها، فضلاً عن مواضع أخرى في كتابه لوح فيها إلى المجاز المرسل .

وأمّـا الجـاحظ (ت ٢٥٥هـ) فيعدّ مـن الأوائـل الـذين تحـدثوا عـن المجـاز بصـورة جليـة مخرجـا هـذا المصـطلح مـن دائـرة التفسـير إلـى البلاغـة ، لكنـه لـم يشـر الـى المجـاز المرسـل بصـورة واضـحة، فحديثـه عـن علاقتـين مـن علاقـات المجـاز المرسـل وهمـا اعتبـار مـا يكـون ، والمجـاورة ، وإن لـم يذكرها بأسمائها الاصطلاحية التي عرفت عند المتأخرين[٦].

وكـان ابـن قتيبـة (ت ٢٧٦هـ) قـد خلـط بـين الاسـتعارة والمجـاز المرسـل وغيـره مـن صـور البيـان ، لكنـه يعـد أول مـن وضـع للمجـاز ضـوابط حـين اشـترط وجـود العلاقـة بـين الطـرفين فـي تعريـف الاستعارة ، والذي يشمل كلّ صور المجاز اللغوي[٧].

وأمـا أبـو هـلال العسـكري (ت ٣٩٥هـ) فصـور المجـاز عنـده غيـر محـددة المعـالم ولا واضـحة الملامـح ، مـن خـلال إدخالـه المجـاز فـي الاسـتعارة ، مـن دون الكشـف عـن ماهيتـه وحقيقتـه وذلـك مـا ظهـر جليـا فـي فصـلي (الاسـتعارة والمجـاز) حينمـا عـد بعـض امثلـة المجـاز المرسـل من قبيل الاستعارة[٨].

وكـذلك القاضـي عبـد الجبـار(ت ٤١٥هـ) فقـد ذكـر بعضـا مـن علاقـات المجـاز المرسـل مثـل ١- السـببية ٢- المسـببية ٣- الجزئيـة ٤- اعتبـار مـا كـان ٥- اعتبـار مـا يـؤول إليـه ٦-الحاليـة ٧- الآليـة، وهـو كحـال مـن سـبقه لـم يصـرح باسـم المجـاز المرسـل ، لكنـه شـرح تلـك العلاقـات ووقف عندها ملقيا الضوء عليها[٩].

أمـا عبـد القـاهر الجرجـاني (ت ٤٧١هـ) فيعـد أول مـن وضـع مصـطلح المجـاز المرسـل فـي كتابـه (أسـرار البلاغـة) ، وكـذلك وضـع الحـدود الفاصـلة بينـه وبـين انـواع المجـاز الأخـرى حيـث قسـم المجـاز علـى قسـمين مجـاز لغـوي يقـع فـي المثبـت ، ومجـاز عقلـي يقـع فـي الإثبـات ، فقـال:

((واعلم أن المجاز على ضربين: مجاز من طريق اللغة ، ومجاز من طريق المعنى والمعقول ، فإذا وضعنا الكلمة المفردة كقولنا : اليد مجاز في النعمة والأسد مجاز في الإنسان... كان حكما أجريناه على ما جرى من طريق اللغة ؛ لأنا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ومتى وضعنا بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة)) [١٠]. ثُمَّ جاء العلماء بعده واخذوا هذا المصطلح وفصلوا القول فيه ومن بينهم الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في تفسيره الكشاف من خلال تحليله للآيات القرآنية الكريمة ذاكراً المجاز بأنواعه في إطار العرف اللغوي والبلاغي في سياق كلامه[١١].

وصولاً إلى السكاكي (ت٦٢٦هـ) الذي تكاد رؤيته لا تختلف عن سابقيه بخصوص المجاز فهو يراه بأنه : ((الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناه في ذلك النوع))[١٢].

هذا استعراض ميسر لآراء العلماء فيما يخص المجاز المرسل وأن اختلفت الاقوال فيما بينهم إلا أن مضمون الفكرة عند جميعهم واحدة .

وتكمن أهمية المجاز في استعماله في كثير من مواطن الكلام عند الأدباء فالعرب ((تعده من مفاخر كلامها ، فإنه دليل الفصاحة ، ورأس البلاغة ، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات))[١٣].

بل إنَّ الغاية المرجوة منه ابعد من ذلك فجمالية المجاز المرسل في التعبير الأدبي تكمن حينما ((يختلج في صدر السامع المعنى الأصلي عند اختطاف اللفظ ، ثُمَّ ينصرف بالقرينة إلى غيره ، ويجد أقرب الأشياء ملابسة المعنى بالقرينة ، فالملابسة صححت الاستعمال ، وأعانت علي الفهم ؛ لأنه كثيراً ما يلتفت الذهن إلى ما في أطراف الشيء ، والقرينة أعانت أيضا على الفهم واكدته وعينت المراد))[١٤].

ورغم روعة المجاز المرسل وجماله في النصوص يبقى السر في ذلك يكمن في كيفية استعماله ، وعدم إقحامه ما بين المعاني والألفاظ ، فأجمله ما كان عذبا يروي ظمأ القارئ ،

ويخترق قلبه ، ويسيطر على عقله ، وهذا يحتاج إلى مبدع عارف بأصول الصنعة البلاغيّة ، وخبيراً في صناعة القوالب اللفظية ، فكيف إذا كان ذلك المبدع أمير البلاغة والفصاحة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) (ت ٤٠هـ) الذي لا زال نهجه(نهج البلاغة) حاضراً إلى يومنا هذا لم تستطع البشرية من بعده أن تحدد تلك القدرة التي صيغ فيها هذا الكلام القائم على متانة السبك ، وقوة التراكيب ، وإحلال المعنى ، والتعبير السلس ، الذي تطوله فيه الجملة بطول الفواصل الفكرية وتقتصر بقصرها ، ناهيك عن العناية بأدق التفاصيل ، وأغرب المعاني ، والإحاطة بمختلف الصور ، فهذا كله ينبئ عن مبدع احكم صياغة عباراته ، وراعى الدقة في تأليفها ، وقدَّمها بوساطة جرس صوتي لا تنفره النفس الإنسانية حين يصلها ، حتى يخيل لكل قارئ أو سامع أن هذه الكلمات صنعت له لا لغيره وهنا تكمن جمالية نهج البلاغة فهو افق واسع لا يقتصر على حقل دون آخر فهو عام لكل الامور الدينية والدنيوية ينطلق كلامه من وحي القرآن ومعانيه ، ترى العامل الوجداني لا يفارقه ، ومن يطالع كلامه يتأكد من بلاغته وحكمته في فعل الخطاب .

لقد كان على حق ميخائيل نعيمة حين قال : ((إنه ليستحيل على أي مؤرخ أو كاتب مهما بلغ من الفطنة والعبقرية ، أن يأتيك حتى في ألف صفحة بصورة كاملة لعظيم من عيار الإمام علي ، ولحقبة حافلة بالأحداث الجسام كالحقبة التي عاشها ، فالذي فكره وتأمله وقاله وعمله ذلك العملاق العربي بينه ، وبين نفسه وربه لمما لم تسمعه أذن ولم تبصره عين ، وهو أكثر بكثير مما عمله بيده أو أذاعه بلسانه وقلمه ، وإذا ذاك فكل صورة نرسمها له هي صورة ناقصة لا محالة ، وقصارى ما نرجو منها أن تتبض بالحياة))[١٥].

تلك الشخصية التي استطاعت أن تثير قضايا الوعي والضمير الإنساني ، فهو في مجمل كيانه لغزاً لا يمكن احتواؤه ، أو التعامل معه على أساس قواعد المنطق الصارمة فهي بذاتها لن تخرج بنتيجة تعطي لهذا الرجل حقه مقابل ما قدمه من حياته وفكره للإنسانية بصورة عامة .

وإذا ما تحدثنا في محفل ما عن جماليات الأسلوب في كتابات المبدعين فمن المعيب أن لا يذكر نهج البلاغة في تلك المحافل ؛ لما فيه من روعة في الأسلوب ، وجمال في الصياغة، لم تكن معروفة عند غيره ، بل هي سمة بارزة ، وعلامة فارقة ، متعلقة بشخصه دون الآخرين ، وهذا ما سنثبته عبر بوابة المجاز المرسل ، وكيف أن الإمام استطاع أن يوظفه خدمة لمعانيه ، وغاية لإصلاح الناس .

المطلب الأول :المجاز في إطلاق اسم السبب على المسبب

وهو تسمية الشيء باسم سببه ، أو التعبير عن المسبب بالسبب . (١٦)

ومثاله قوله (عليه السلام): **((أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ وَخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ))**(١٧).

الإمام في هذا المقطع يقدم لوحة بلاغية واضحة المعالم للعيان من جهة المعنى ، لكن روعة أسلوبه وصياغته لها هو من زادها جمالاً وتأثيراً في نفوس المتلقين ، وذلك حينما جاور المجاز المرحلة في إطلاق اسم السبب على المسبب مع (التضاد) فيما يخص الإسلام وعلو شأنه عند الله عز وجل ، وهذا ما بدا جليا في قوله : (أذل الأديان بعزته) فهو مجاز ؛ لأن ذلة الأديان تكمن في عدم الالتفات إليها ، فيكون من باب إطلاق اسم السبب على المسبب ، وجائز أن يكون للحذف مكان هنا من باب (حذف المضاف) فيكون التقدير : ذلة أهلها ، فيكون عزٌّ الإسلام سبباً لذلة الأمرين ، ونحن نرى أن المعنى في المجاز المرسل أقرب من غيره ، والحال نفسه في قوله : (وضع الملل برفعه) إذ جعل الإسلام سيداً عليهم ، وسبباً في ارتفاع شأنهم به ، وخذلانهم في حال تركوه وذهبوا إلى غيره ، وقوله : (أهان أعدائه بكرامته) من بديع المجاز المرسل ؛ لأنه جعل الإسلام سببا في إهانة المشركين والمكذبين له من الملل الأخرى من خلال قتلهم وأخذ الجزية منهم أو تصغيرهم ، وكرامته تتمثل في إجلالهم ،

وتعظيم نفوسهم في حال كانوا معه ، والأمر يتعدى ذلك بخذلان من يعتنق غيره ؛ لأن الخير فيه موجود ، والنصر به معقود ، فلا سبيل إلى غيره .

وأروع ما في النص الصور المتضادة في (الذل- العز) ، (الوضع- الرفع) ، (الاهانة- الكرامة) ، (الخذلان- النصر) ، الذي عمل على إضاءة الرؤية ، وكشف أبعادها ((عبر تواتر العلاقات وتداخلها في سياق جدلي يتسم بالصراع تحت السطح مما يمنحنا عنصر المفاجأة بكسر المألوف والاندهاش بما لم يكن متوقعا ، وهو يجعل البصر أكثر حدة والذهن أقوى تركيزاً على كافة البؤر التي تنسج في فضاء الأحداث))[١٨]. والغاية الأساس من كل هذا أن يصيب المعنى عقل المتلقي ؛ ليهتدي إلى جادة الصواب وهو الدين الإسلامي ، وأن لا تزل قدمه إلى الهاوية والعياذ بالله .

وفي قوله (عليه السلام): ((**فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ وَصَامِتٌ نَاطِقٌ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ**))[١٩]. جماليات هذا النص تكمن في استعمال الإمام نوعين من المجاز المرسل ممزوجا مع (التضاد) ، والحديث هذه المرة عن القرآن الكريم ، وكتاب الله جل وعلا كيفما تحدثت عنه هو إعجاز بحد ذاته ، لكن كيف إذا ذكر بأسلوب بلاغي يرتقي إلى مستوى جمالي مبهر من رجل تتراكم المعاني الحية في عقله ، والصورة النابضة في قلبه ، فكانت النتيجة أن اغلب موضوعاته تستعمل فيها الألوان البلاغية ممزوجة مع بعضها، لتزاحمها عنده ضمن ظاهرة تعرف بـ (التمازج الأسلوبي).

فهو مرة يستعمل المجاز المرسل مع التضاد في قوله : (آمر – زاجر) من باب إطلاق اسم السبب على المسبب ؛ لأن الأمر والناهي هو الله عز وجل ، وعاد مرة أخرى وقال : (صامت – ناطق) وهو مجاز مرسل من باب إطلاق اسم المتعلق على المتعلق به ، فالصمت والنطق صفتان متعلقتان به ، فهو أطلق عليه لفظ النطق مجازاً ؛ لأنه ينطق بالحق دوماً ، وفيه جميع ما يحتاجه البشر من تعاليم في حياتهم الدينية والدنيوية ، ولذلك فلفظ النطق متعلق به مجازاً ، فهو حجة الله على خلقه ؛ لما فيه من وعد ووعيد ، وتبياناً وتفصيلاً لكل شيء .

وقوله (عليه السلام): ((**وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ**))[٢٠].

قال ابن ميثم البحراني (ت ٦٧٩هـ) عن قوله (عليه السلام) : (لقد رجعت إلى جهات النطق) انه ((من أفصح الكلام وأبلغه))[٢١]. وهو على حق بذلك ، وأي بلاغة توصف حال الناس بعد موتهم أروع من ذلك ؟ فالإمام حتى يوضح لهم الحال بعد الفناء عمد إلى المجاز المرسل في قوله : (آذان العقول) في علمها بأحوالهم التي من شأنها أن تسمع من باب إطلاق اسم السبب على المسبب ، وجمال النص هنا يكمن في استعمال الإمام تلك المظاهر البلاغية ممزوجة ، ومتجاورة ؛ لتقديم صورة حية لا تفارق ذهن المتلقي أبداً ، فقوله : (رجعت فيهم أبصار العبر، وسمعت عنهم آذان العقول) مقصود به الأحياء ، وقوله : (وتكلموا من جهات غير النطق) مقصود به الأموات وهذا من باب التضاد المعنوي الخفي ، الممزوج مع المجاز المرسل ، وهذه الصورة بدورها جاورت (التقديم والتأخير) في تقديم الجار والمجرور (فيهم – عنهم) ؛ لغرض الاختصاص ، وخلاصة القول في هذا النص (إنَّ الأحياء وإن لم يمكن لهم إدراك حالات من القبور بطرق المشاعر الظاهرة ، واستطلاعها بالأبصار، والآذان ، لكنهم تمكنوا من معرفتها بأبصار البصائر والعبر والاطلاع عليها بطرق العقل ، وكذلك الموتى وإن لم يكن لهم إيصال أخبارهم إلى الأحياء وإظهار حالاتهم بالنطق ولسان المقال ، لكنهم اخبروهم وتكلموا بلسان الحال)[٢٢].

فانظر إلى روعة المجاز المرسل كيف أسهم في إخراج هذه اللوحة البلاغية فهو ((وسيلة العربية في إضافة المعاني الجديدة ، وهو وسيلة اللغة في الإضاءة والتنوير ، وهو طريق المبدعين في الإفاضة والبيان))[٢٣]، ولذلك ترى أن الإمام يستعمله بأشكاله المختلفة في كثير من أقواله ؛ لعلمه بما يؤديه هذا المظهر من تأثير في الآخرين.

المطلب الثاني :المجاز في اطلاق اسم المسبب على السبب :

وهو تسمية الشيء باسم ما تسبب عنه ، أو أن يكون المنقول عنه مسببا لشيء آخر .[٢٤]

ومثاله قوله (عليه السلام): ((**فَهْماً لِمَنْ عَقَلَ وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ**))[٢٥].

الفاعلية الأدبية لهذا النص تكمن في قدرة قائله على صناعة موضوعه بأشكال متعددة بدون إخلال في المعنى ، أو فسادٍ في اللفظ ، فبعدما تحدث عن الإسلام بهيئة المجاز المرسل في إطلاق اسم السبب على المسبب ، ها هو يعود مرة أخرى بحديث عن الإسلام ايضا بالمجاز المرسل لكن من نوع آخر وهو إطلاق اسم المسبب على السبب في قوله : (فهما لمن عقل) حيث جعل ((الفهم عبارة عن جودة تهيؤ الذهن لقبول ما يرد عليه كان الدخول في الاسلام ورياضة النفس بقواعده واركانه سببا عظيما لتهيؤ الذهن لقبول الأنوار الإلهية وفهم الأسرار لا جرم أطلق عليه لفظ الفهم مجازاً إطلاقا لاسم المسبب على السبب))[٢٦]. وقوله : (لبًّا لمن تدبر) حيث اطلق عليه لفظ اللب مجازاً ؛ وذلك لأن الإسلام وقواعده أقوى الأسباب لحصول العقل بمراتبه ، وقوله: (نجاة لمن صدَّق) مجاز مرسل ؛ لأن التصديق به واعتناقه من مسببات النجاة من عذاب الله في الدنيا والآخرة ؛ فأطلق عليه اسم النجاة مجازاً لإطلاق اسم المسبب على السبب ، ولذلك فإنَّ ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) لم يخف إعجابه بهذا التراصف العلوي للكلمات مع بعضها فقال : ((هذا باب من الخطابة شريف ؛ وذلك لأنه ناط كل واحدة من اللفظات لفظة تناسبها وتلائمها لو نيطت بغيرها لما انطبقت عليها ولا استقرت في قرارها))[٢٧]، فكلام الشارح أصاب كبد الحقيقة ؛ لأن كل كلمة من هذه الكلمات هي ترجمان لأختها وصورة بحد ذاتها فمجموع هذه الصور هو من ساهم في إثراء المعنى المراد إيضاحه .

وقوله(عليه السلام) : ((**رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرْوَوْا مِنَ الْمَاءِ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ**))[٢٨].

المعايير الجمالية لهذا النص تنطلق من قدرة صاحب هذا النص على استثارة الهمم في نفوس المقاتلين ، فنحن نعلم أن المقاتل وقت الحروب ، وقعقعة السلاح واشتباك الاسنة مع بعضها قد يغيب عنه الإبداع ، إلاَّ الإمام فمخزونه الفكري والبلاغي حاضر في كل زمان ومكان ، وخير دليل هذا النص الذي مهد للمجاز بذكر(الاستعارة) في تروية السيوف من الدماء ، ثُمَّ عاد وقدم المجاز المرسل ممزوجاً مع (المقابلة) إذ اطلق لفظ (الموت) مجازاً مرسلاً عن الشدائد والأهوال التي ستلحقهم من سقوط المنزلة والمذلة التي يتركها لهم عدوهم بهذا الحال في قوله : (الموت في حياتكم مقهورين) من باب إطلاق اسم المسبب على السبب ، فالرجل الكريم عنده سقوط المنزلة والهضم والاستنقاص موتات متعاقبة أشد من موت البدن ، ويحتمل أن يكون المراد به موت النفس بترك الجهاد الذي هو مستلزم للحياة الطيبة فيكون مجازاً من باب إطلاق اسم المشابه على ما يشابهه ، والحياة الحقيقية في موتهم قاهرين الاعداء في الدنيا يبقى ذكرهم قائماً ولا يفنى، وفي الآخرة البقاء الأبدي في جنات الخلود .

واجمل ما في النص طريقة الصياغة التي استعملها الإمام في تغيير معتقد عند الناس بأن الخلود ببقائهم أحياء ، فما كان منه إلا أن صنع لوحة بلاغية قوامها المجاز المرسل المؤطر بالألوان البلاغية الأخرى لدحض هذا المفهوم وإزالته من عقولهم بصورة نهائية .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ وَطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ وَجِلَاءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ**))[٢٩].

بلاغة هذا النص تنهض بتلك الأضداد التي ضعها الإمام لتكون تعبيراً عن التقوى وصورة يستشعر جمالها المتلقي حينما يسمعها ، ليعرف معناها وحتى لا تكون هناك رتابة في تلك الأضداد التي عبَّرت عن التقوى خير تعبير ، تراه يمزجها بالاستعارة كما في قوله : (عشا أبصاركم) ، و(سواد ظلمتكم) وحتى تكتمل اللوحة البلاغية جيء بالمجاز ، متجاوراً مع

الاستعارة في لفظي (الجلاء) ، و(الضياء) من باب اطلاق اسم المسبب على السبب في صناعة بلاغية قل نظيرها عند الآخرين .

فهو حينما وصف التقوى بالجلاء ؛ لما تستلزمه من إعداد النفس للكمال ، ووصفها بالضياء؛ لما تتركه في نفس الإنسان من خير ، فتكون التقوى من مسببات صلاحه في الدنيا ، ونجاته في الآخرة . فالمجاز المرسل هنا اعطى تلك الأضداد عناصر الابتكار ، والدهشة ، والمفاجأة التي يأخذ بمشاعر المتلقي ويستولي عليها حتى يتمكن من إثارة الانفعال المناسب[٣٠]. وهذه هي وظيفة المبدع اخراج نصوصه بطريقة مدهشة تثير بصيرة المتلقي قبل بصره .

المطلب الثالث : المجاز في إطلاق اسم اللازم على ملزومه :

وهو استعمال اللفظ اللازم في الملزوم ، مثل قولنا : (طلع الضوء) حيث يراد به الشمس . [٣١]

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**الْأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ**))[٣٢].

تحدث الإمام في هذا المقطع عند أمر شغل به اغلب الناس وهو الفرار من الموت ، والوقاية منه ، فجاء كلامه ليبين الحقيقة المتعلقة بالمدة المقررة لعمر الإنسان، ليقول لهم : إن مدة بقاء هذه النفس هو مساقها إلى غايتها وهو الموت في منتهى الأمر، فكلما بقي يوماً آخر كلما اقترب موته الذي لا مناص عنه ، ثُمَّ صوَّر حالهم بعبارة ممزوجة بالمجاز المرسل والتضاد في قوله : (الهرب منه موافاته) في غاية الروعة والوصف ؛ ((وذلك أن الفار من الموت مثلا بالحركات والعلاجات ونحوها يستلزم حركاته في ذلك فناء الاوقات وتصرمها وقطع تلك الاوقات مستلزم لملاقاته فأطلق لفظ الموافاة على الهرب مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه))[٣٣].

فالإمام اطلق لفظا الموافاة على الهرب مجازاً فيما يخص الموت ؛ لأنه مسألة لازمة له لافرار منه ابداً مهما حاول الإنسان أو تحايل في ذلك .

وقولـه (عليه السلام) : ((**ثُـمَّ الْصَـقْ بِـذَوِي الْمُـرُوءَاتِ وَالْأَحْسَـابِ وَأَهْـلِ الْبُيُوتَـاتِ الصَّـالِحَةِ وَالسَّـوَابِقِ الْحَسَـنَةِ ثُـمَّ أَهْـلِ النَّجْـدَةِ وَالشَّـجَاعَةِ وَالسَّـخَاءِ وَالسَّـمَاحَةِ فَـإِنَّهُمْ جِمَـاعٌ مِـنَ الْكَـرَمِ وَشُـعَبٌ مِـنَ الْعُرْفِ**))[٣٤].

التعبير العلوي هنا يؤسس جماليته في ذلك النص الذي في الأساس من وصايا عهدها الإمام إلى مالك بن الاشتر حين ولاه على مصر ، والكلام واضح للعيان من خلال أوامره بأن يلزم هذا النوع من الناس ؛ لأنهم كما قال : (جماع من الكرم ، وشعب من العرف) وهذا من المجاز المرسل ، فوصفه لهم بهذا الكلام هو من باب إطلاق اسم اللازم على ملزومه ؛ معللاً ذلك أن تلك الأوصاف ملازمة لهم ، فـ((الأمانة والسخاء والسماحة فضائل تحت العفة، والحلم والنجدة فضيلتان تحت الشجاعة))[٣٥].

والذي يلحظ النص بصورة دقيقة يراه يختلف عن غيره من النصوص الأخرى ، فالإمام لا يكثر من استعمال الألوان البلاغية متجاورة ، أو ممزوجة مع بعضها ؛ حتى لا ينشغل عقل السامع في ادراك طريقة صياغتها ، وينسى الهدف الذي قيلت من أجله ، ومع ذلك فإن الإتيان بالمجاز المرسل هنا ؛ لأنه((أسلوب من الكلام قوامه الاستغناء عن اللفظ الأصلي والتعبير عن المعنى بلفظ يدل على معنى آخر في أصل اللغة ، ولكنهما متداعيان ملتحمان فمقومات المجاز المرسل إذن ثلاثة التعبير عن لفظ بلفظ آخر ، والارتباط لمقتضى التداعي، واعتماد المجاز))[٣٦].

وقوله (عليه السلام) : ((**يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ**))[٣٧].

المسحة الجمالية لهذا المقطع تقوم على ذلك التصوير الرائع للذات الالهية في هذه الكلمات التي تحمل الألوان البلاغية في فضائها ، فالمقطع برمته قائم على (المقابلة) ، ومن ضمنها يخرج (جناس القلب) في (يبغض – يغضب) ، والمجاز المرسل في إطلاق لفظي المحبة والرضا ، والبغض والغضب إطلاقاً لأسم اللازم على ملزومه ، ((فمحبته للعبد إرادته لثوابه وتكميله وما هو خير له ، وأما من العبد فهي إرادة تقوى وتضعف بحسب تصور المنفعة

واللذة .... ، وأما الرضا فقريب من المحبة ويشبه أن يكون أعم منها أن كل محب راض عما أحبه ولا ينعكس . فرضاه تعالى عن العبد يعود إلى علمه تعالى بموافقته لأمره وطاعته له))[٣٨]. والحال بالضد في كونه يبغض ويغضب، فبغضه تعالى للعبد بالضد من محبته له؛ وسببه يعود إلى ابتعاد الناس عن ثوابه ؛ وغضبه لعلمه ﷻ بما يصنعه العبد من مخالفات لأوامره ، وكبائر نواهيه وعدم الامتثال لطاعته ، وهذا البغض والغضب يختلف تماماً عن الصفات البشرية المتعلقة بهم ؛ لأن من أعراضها ثورات النفس وعدم السيطرة على القوة الغضبية .

وأجمل ما في النص أن الإمام استعمل لوناً بلاغياً آخر يعرف بـ(التتميم) وذلك في قوله : (من غير مشقة) إكمالاً لما قاله سابقا بأن بغضه وغضبه لا يستلزمان هيجان النفس ، وفوران دم القلب ، فجيء بهذه العبارة حتى تقطع الطريق على الذين يحكمون في فساد الكلام وصلاحه ، وهذا من لطيف صناعته ، وبديع صياغته.

المطلب الرابع :المجاز في إطلاق اسم الملزوم على لازمه :

وهو استعمال اللفظ الملزوم في اللازم مثل قولنا : (جلست في القمر) اي في ضوئه . [٣٩]

مثاله قوله (ﷺ) : ((**وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ**))[٤٠].

الملامح الجمالية لهذا المقطع تقوم على تلك المعاني المختزلة بتلك الألفاظ التي حوت في فضائها الشيء الكثير فيما يخص البشرية ، ولعل منشئها عمد إلى ذلك من خلال إيراد المجاز المرسل في موضعين ، أولهما : في الإخلاص حينما أطلق عليها لفظ الفطرة مجازاً من باب إطلاق اسم الملزوم على لازمه ؛ لأن كلمة الإخلاص هي لفظ التوحيد الذي يستلزم نفي الشركاء والأنداد ، ولذلك أضيفت إليها ((ووجه فضيلتها كونها فطرة الله التي فطر الناس عليها، فلأن العقول السليمة البريئة عن شوائب العلائق البدنية وعوارض التربية شاهدة ومقرة، بما اخذ عليها من العهد القديم من توحيد صانعها وبراءته عن الكثرة))[٤١]. ولذلك فإن

الإخلاص بالتسليم بوحدانية الله ﷻ لا شك فيه ولا ريب ، وتعليله لها بالمجاز المرسل بأنها الفطرة صحيح وغير قابل للنقاش عند العقلاء .

ثانيهما: المجاز المرسل في إطلاق لفظ (الملة) على الصلاة وهي مجاز من باب إطلاق اسم الكل على الجزء ، فهي وان كانت واحدة من أركان الدين الحنيف ، أطلق عليها هذا اللفظ المجازي ؛ لأهميتها عند الله سبحانه وتعالى لأن صلاح الإنسان فيها بالدنيا ونجاته بها في الآخرة ، وهي عمود الدين ، ومفتاح الجنة وتاركها مستوجب العذاب لنفسه ، فلا سبيل إلى غيرها في الخلاص من النار .

وقوله (عليه السلام) : ((**أَقْبِلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ**))[٤٢].

هذا النص جماليته مبنية على حضور الاستعارة والمجاز المرسل ، وكيف لا انه الحديث عن الدنيا وما فيها ، فإذا كان الحديث عنها، فأنت محتاج إلى حشد بلاغي يسهم في إخراج الدنيا من عين الإنسان ، وملذاتها من قلبه ، والإمام هنا مهد الحديث للمجاز المرسل في استعارة لفظ الجيفة للدنيا ووجه الشبه بينهما عند العقلاء والصالحين أن لذاتها وقيناتها مستقذرة إلى زوال ، واستعار لفظ الافتضاح في اقتنائها والاشتغال بها ، وقبل الدخول إلى المجاز المرسل كنى في أكلها للتعبير عن جمعها، وهنا جاء المجاز ليكمل المعنى في لفظ الاصطلاح للتوافق على محبتها من باب إطلاق اسم الملزوم على لازمه ؛ لأن ((الاصطلاح عبارة عن التراضي بعد التغاضب ويلزمه الاتفاق على الأحوال... والاصطلاح على محبة الشيء يستلزم شد محبته وهو معنى العشق ونتيجته أن المذكورين في معرض الندم قد اعشت الدنيا أبصارهم وأمرضت قلوبهم))[٤٣]. ولتدعيم ذلك المجاز جيء بالاستعارة مرة أخرى في لفظ البصر لنور البصيرة من باب تشبيه اللفظ المعقول بالمحسوس ، ولفظ العشاء لظلمة الجهل ، واستعار لفظ المرض للداء الاكبر وهو الجهل من باب استعارة اللفظ

المحسوس للمعقول ، فجمالية المجاز المرسل هنا ليس في حضوره منفرداً ، وإنما لأحاطته بكل تلك الاستعارات التي أعطته رونقاً ، ودلالة متميزة، تختلف عما لو كان وحده .

وقوله (عليه السلام) ((**أَيْقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، واقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ**))[٤٤].

الملامح الجمالية لهذا المقطع تقوم على تلك المظاهر البلاغية المختزلة فيه ، والتي حوت في فضائه أكثر من معنى ، ولعل منشئه عمد إلى تلك الدفقة البلاغية التي يختلط فيها الصوت والتركيب والدلالة في صورة متميزة صيغت لتحمل عنواناً واحداً وهو التحلي بالتقوى، فالإمام جعل المجاز المرسل والاستعارة يشتركان مع (التضاد) لفظاً ويختلفان في المعنى وكلاهما صحيح ، وهذا من بديع بلاغته ، وعجيب فصاحته ، فقد جعل المجاز المرسل أحد طرفي التضاد (الايقاظ – النوم) وهو الإيقاظ وكان قصده – والله اعلم– أن يطردوا بتقوى الله وعبادته نومهم في ليلهم من خلال إحياء ذكره ، وتجنب معاصيه فـ((استعمل لفظ الإيقاظ؛ لإفادته ذلك المعنى إذ كان الأمر بإيقاع أحد الضدين في محل يستلزم نفي الضد الآخر عن ذلك المحل مجازاً من باب إطلاق اسم الملزوم على لازمه ولما فيه من التضاد))[٤٥]، وجائز أن يكون الإيقاظ من باب (الاستعارة) رشحه بلفظ النوم إذا اراد أن يكون نوم الغفلة والجهل أعم من الليل وقيامه، وإنما غفلة الدنيا وجهل الناس فيها ، فلا بد من إيقاظهم بالتقوى والتمسك بها ، والصبر عليها فعند ذلك تكون الاستعارة أقرب من غيرها في هذا القول .

وقوله : (واقطعوا بها يومكم) التعبد نهاراً بها ، وبهذا المعنى يكون الإمام اشرك المتلقي في صناعة المظهر البلاغي من خلال فهمه للنص ، ولعل هذا من اسباب خلود هذه النصوص إلى يومنا هذا ، وحتى تستمر فاعلية النص كان (الجناس المضارع) حاضراً في قوله : (نومكم– يومكم) ، (والتقديم والتأخير) في الجار والمجرور (بها) ؛ لأجل الاختصاص والتأكيد على مضمون التقوى قبل كل شيء .

فهذا هو الخطاب العلوي جماليته لا تنحصر باللون البلاغي الواحد ، وإنما في تبادل الادوار التي تؤديها تلك المظاهر باختلاف المعاني في النص .

المطلب الخامس :المجاز في إطلاق الجزء على الكل :

إطلاق لفظة ((الجزء)) وإرادة ((الكل)) على سبيل المجاز المرسل .[٤٦]

ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**هِيَ حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ**))[٤٧].

تنهض بلاغة هذا النص من خلال استعمال الإمام للدنيا تلك الأوصاف بهيئة المجاز المرسل ، وكيف نسق بين اللفظة وأختها ، لتعبر عما أراده خير تعبير ، فمزج بين القوة الذائقة وهي الحلاوة ، والقوة الباصرة في الخضارة وأطلق لفظيهما مجازاً للتعبير عن جهات الميل إليها من باب إطلاق لفظ الجزء على الكل ، وأروع ما في هذا المجاز المرسل انه مزج مع لون بلاغي آخر وهو (المدح بصيغة الذم) من باب الاعتراض عليها والنفرة منها ، وعزز ذلك بقوله : (عجلت للطالب) أي أن الذي يرى ما فيها من هكذا وصف لا يلتفت إلى سواها ، بل هي أكثر من ذلك حينما قال : (التبست بلقب الناظر) ، ((وإنما خص الناظر لتقدم ذكر الخضرة التي هي من حظ النظر فمن عجلت له منحة والتبست بقلبه وكان لا بد من مفارقتها لم ينتفع بما بعدها بل بقي في عذاب الفراق منكوسا وفي ظلمة الوحشة محبوسا))[٤٨].

ومثل كل مرة لا يفوت الإمام التناسق الصوتي من خلال حضور (التوازن) في (الطالب – الناظر) ، وقد يقول أحدهم ان الإمام قصد بالخضارة على وجه الحقيقة ، لا المجاز؟ فيكون الجواب ان الإمام اسمى وارفع من أن يتحدث بكلام في هكذا معنى؛ لأن جميع مرامي أفكاره بعيدة ، وألفاظه دقيقة ، ولا يمكن اختزاله في حقيقته .

فميزة المجاز ليس فيما يقوله مبدعه أو فيما يثبته فحسب ، وإنما في طريقة إثباته ، ((فجوهر المجاز ، إنه ذو شكل))[٤٩]. ولذلك ترى أن الإمام برع في صياغة الأفكار والمعاني بألوان بلاغية متميزة كلها تعمل على تأدية الغرض المنشود بدون خلل أو نفور .

وقوله (عليه السلام) : ((**فَلَا تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ وَتَهَاوُناً بِبَطْشِهِ وَيَأْساً مِنْ بَأْسِهِ**))[٥٠].

القيمة الإيحائية لهذا المقطع تقوم على ذلك الإنذار الشديد اللهجة فيما يخص الحذر من بأس الله وقوارعه ، وأيامه ووقائعه في العباد ، لاسيَّما القرون الماضية وما حل بهم نتيجة معصيتهم ومخالفتهم لأوامره ، وحتى تصل الفكرة على اتم وجه جيء بالمجاز المرسل في لفظ الاستبطاء من باب التهديد لهم والوعيد بقرب العقوبة على معاصيهم ، فهو أطلق لفظ الاستبطاء مجازاً ؛ ((لأن الاستبطاء للشيء استبعاد لوقوعه مع انتظار وقوعه المستلزم لطلبه وطلب تحقيق الوعيد ليس من مقاصد العقلاء حتى ينهون عنه لكن لما كان الإنسان إذا هم بالمعصية قد يستبعد تحقيق الوعيد وقربه فيكون ذلك مما يقوي معه داعيته وشهوته لفعلها كان ذلك الاستبعاد سببية بوجه ما للمعصية ، ولما كان ذلك الاستبطاء أطلق عليه إطلاقا لاسم الجزء على الكل فيكون التهديد والتوبيخ عليه أبلغ))[٥١].

فضلا عن ذلك ان الذي يقدم على المعصية مع علمه بما يحصل من عذاب يتناسب في الحقيقة مع الذي يستبطئ العقوبة ويطلب تعجيلها بفعله ، فكانوا بمعصيتهم كالمستبطئ للوعيد ، ولذلك أطلق في حقهم لفظ الاستبطاء ونهاهم عنه ، وعاد ونصب (جهلاً – تهاوناً – بأسا) على المفعول له ؛ لإفادتها علاً غائية تفيد استبطاء الوعيد الذي بمعنى استبعاده فجعل هذه الألفاظ من أسباب الاستبطاء ، فجهل العبد يتمثل بأخذ الله ﷻ له بالموت وأهوال الآخرة ، وتهاونه ببطشه يتمثل في عدم الاكتراث لوعيده، والإصرار على المعصية ، واليأس من بأسه يتمثل بعدم المعاجلة في العقوبة على الذنب فوراً ، فهذه الأمور يجب الالتفات إليها وعدم التهاون بها إطلاقاً .

وقوله (عليه السلام) : ((**أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا**))[٥٢].

هذا النص يفصح عن جماليته بتلك الألوان البلاغية التي رسمت صورة رائعة تصلح أن تكون عنوانا للمؤمن الخاشع الذي يخشى الله ﷻ في كل شيء ، ومثل هكذا صور لا بد من حضور المجاز المرسل بما يحمله من دلالات تؤثر في نفوس المتلقين ، فالإمام استعمل لفظ الأفواه وأراد الأبدان مجازاً من باب إطلاق الجزء على الكل ، حيث اسند السكوت إلى الأفواه ؛ لأنها طريق الكلام من باب المجاز المرسل ، ((والسكوت بالحقيقة لا يقع إلا مسنداً إلى الشخص))[٥٣].

ثُمَّ قدم مسحة صوتية جسَّدها (جناس التصريف) بنوعيه (الجناس المضارع) في (ملوا – ذلوا) ، و(الجناس اللاحق) في (ذلوا – قلوا) وهذا يعرف بالجناس الثلاثي تعبيراً عن حالهم في الدنيا ، وحتى تحصل الإثارة البلاغية مزج الإمام احد طرفي الجناس مع المجاز المرسل مرة أخرى حينما اسند القتل إلى الكل مع بقائهم من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء ؛ ((لأن الكل لما كان مقصوداً بالقتل كان كونهم مقتولين علة غائية فجاز إسناد القتل إليهم وإن كان المقتول بعضهم))[٥٤].

وهذا من عجيب المجاز المرسل والبديع هنا أن الإمام استعمله بنوعين مختلفين متجاوراً وممزوجاً ، للدلالة على تمكنه من ناصية الكلام ، وفصل الخطاب ، وقوة التعبير .

المطلب السادس :المجاز في تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه :

وهو استعمال اللفظ الذي وضع للمستقبل في الحال مجازاً . (٥٥)

مثاله قوله (عليه السلام) : ((**فَيَا عَجَباً عَجَباً وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ**))(٥٦).

روعة هذا النص وجماليته تختلف عن كثير من النصوص الأخرى في الخطاب العلوي والسبب في ذلك يعود إلى الألم والحسرة التي خلفها الناس في قلب الإمام ؛ لتركهم الجهاد، فلك أن تتخيل كيف ستكون ألفاظه ومعانيه ، بلا شك ستكون بمستوى الوجع الذي تركه قومه في نفسه ، وهذا ما أفصح عنه المجاز المرسل الذي جاء لأول مرة بنوعين في لفظ واحد وكلاهما صحيح وهذه ميزة للإمام دون غيره من المبدعين ، فقد تجوز بلفظ الموت في الهم من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه ، وإطلاقاً لاسم المسبب على السبب ، فـ((كلما كان الأمر اغرب وأسبابه أخفى كان أعجب ، فإذا كان أمراً خطراً مهما وانبعثت النفس في طلب سببه فقد تعجز عن تحصيله وتكل القوة المتخيلة عن تعيينه فيحدث بسبب عدم الاطلاع على سببه هم وغم ؛ لأنه كالمرض الذي لا يمكن علاجه إلا بالوقوف على سببه فيسمى ذلك المهم موتا للقلب))(٥٧).

وزاد من روعة ذلك المجاز المرسل إحاطته (بالتكرار) في قوله: (عجبا عجبا) و(المقابلة) في اجتماع القوم على باطلهم ، وتفرق أصحاب الإمام عن حقهم، فحاله (عليه السلام) مثل الطبيب الذي ألزم بعلاج قوم مع خطر مرضهم ، وعدم امتثالهم لأوامره من حمية أو شرب دواء حتى يمتثلوا للشفاء وهذا ما يجلب الهم له ، فالصورة اكتملت أركانها حينما ظهر لهم التعجب بهيئة التكرار ، ووصف حاله معهم بالمجاز المرسل ، وأعقبه بذكر المتعجب منه بالمقابلة ، ليكون في نفوسهم أوقع ، وفي عقولهم أبلغ . وقوله (عليه السلام) : ((**بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً**))(٥٨).

هذا المقطع من جملة وصايا أوصى الإمام بها ابنه الحسن (عليه السلام) وجماليته تكمن في صياغته ، فمعانيه لا تقف حدودها عند طول الجملة أو قصرها ، المهم عنده وصول الفكرة إلى المتلقي بالسرعة المطلوبة وهنا يتطلب حضور المجاز المرسل ، ولأن النفس تأنس بالجرس الموسيقي ، والإيقاع المتميز جيء (بالسجع المتوازي) في (فرصة – غصة) مع المجاز في لفظ (غُصَّة) حيث أطلقه على الفرصة مجازاً من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه وهذا صحيح فالإنسان عليه استثمار الفرصة في صحته قبل سقمه ، وفي شبابه قبل هرمه ، وفي حياته قبل موته ، وألا تكون حياته قائمة على الحسرة بعد فوات الأوان ، فهو (عليه السلام) بفكره الثاقب ، ومخيلته الواسعة استطاع أن يرسم لوحة بلاغية جسَّدها المجاز المرسل ،؛من أجل شحذ ذهن المتلقي وحمله على العمل بها ؛ لأنها سبيل نجاته وخلاصه .

وقوله (عليه السلام) : ((**عِزُّهَا ذُلٌّ وَجِدُّهَا هَزْلٌ وَعُلْوُهَا سُفْلٌ**))[٥٩].

هذا النص يحمل في فضائه حشداً بلاغياً بمنتهى الجمال من خلال تلك الألوان البلاغية التي رسمها بريشة مخيلته ، لتخرج لنا الصورة تنبض بالحياة إلى يومنا هذا ، وهي الدنيا وما فيها ، وروعة هذه الكلمات المنتظمة في عبارة تحيلك على قراءات متعددة ، لكن قبل ذلك يطيب للإمام استعمال المجاز المرسل ممزوجا مع (التضاد) في قوله : (عزها ذل) ، (علوها سفل) ، فجائز لك أن تقول أطلق عليها لفظ الذل مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه إذا عرفنا ان عزة ملوكها في الدنيا اذلاء في الآخرة فهي صفة ملازمة لهم لا محال ، أو مجازاً من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه ؛ لأن العز والأموال في الدنيا ستؤول بك إلى الابتعاد أو الانحراف عن الدين والتقوى ، وهذا سيؤدي بك إلى الخذلان الاكبر يوم القيامة عند لقاء الله ﷻ ، والحال نفسه في قوله : (علوها سفل) أي أن العلو الذي أحدثته الدنيا للإنسان بأموالها وقيناتها ستكون وبالاً عليه في الآخرة من انحطاط المرتبة والدرجة بين الخلق آنذاك ، وللاستعارة نصيب في هذا المقطع في قوله : (جدها هزل) في سرعة إقبالها

على الإنسان بالخير الوفير ، وهناك عند إعراضها عنه ترميه بسهام المصائب ، وتحرقه بنيرانها فحري الحذر منها ، والاتعاظ بما فعلته بالأمم السابقة ، والقرون الماضية.

ولعل تلك الأضداد عبَّرت خير تعبير عما فيها من أحوال متقلبة ، وأمور شتى اختزلتها ثنائية الحضور والغياب في تلك الألفاظ ؛ لتجلب ذهن السامع إليها .

فهذا هو المجاز المرسل مصدر جماله في التعبير يكمن في وقوعه من النفس موقعا مؤثراً ، تراه يوافيك ببديع المعاني ، وعظيم الصفات ، في لفظ يسير ، ومعنى كبير ، تراكيبه بسيطة، بعيدة عن التكلف والتعقيد ، والسبب في استعمال الأدباء له ؛ لأنه يقدم لك المعاني بصورة قد لا يفصح عنها اللفظ في أصل استعماله وهنا تكمن بلاغته ، فضلاً عن كونه قيمة فنية وسمة جمالية يعرض المعنى في نسق خيالي رائع مع المحافظة بين الروابط العقلية والمعنوية للأشياء التي يراد التعبير بها وكيف به إذا اتيح استعماله لرجل مثل الإمام (عليه السلام) يعرف كيفية استعماله وتوظيفه فلك أن تتخيل روعة البيان ، وفصاحة اللسان التي ستنتج جمال المجاز المرسل .

الخاتمة

بعد هذه الدراسة توصلنا إلى جملة نتائج وهي على النحو الآتي :

١. إنَّ الذي يسبر أغوار الخطاب العلوي ويستكنه دلالاته يرى أن الإمام استعمل المجاز المرسل في العديد من الموضوعات الدينية والدنيوية ، وبأشكال متعددة دون فساد في اللفظ ، أو إخلال في المعنى ، بل أبدع في استعماله من خلال تنوع المجاز المرسل باختلاف المعنى في اللفظ الواحد، وهذا من عجيب فصاحته ، وبديع بلاغته .

٢. من يعاين المجاز المرسل في النصوص العلوية يرى أن الإمام يميل إلى استعماله مع التضاد ؛ لما يحققه هذا المظهر من تأثير في نفسية المتلقي من خلال ثنائية (الحضور والغياب) التي بفعلها تتزاحم عنده الصور .

٣. اغلب النصوص المذكورة في هذا البحث لم يكن فيها المجاز المرسل بصورة مفردة وإنما جيء به مع مظاهر بلاغية أخرى ليشكل حالة جديدة تعرف بـ(التجاور الاسلوبي) غير موجودة عند غيره من المبدعين الذين سبقوه.

٤. في صورة تعبر عن فصاحته العالية ، وبلاغته الثاقبة ، ظهر أثناء الدراسة حالة تعرف بـ (التمازج الأسلوبي) وهي مزج لونين بلاغيين أو أكثر مع المجاز المرسل في العبارة الواحدة ، وهي ظاهرة تستحق الدراسة والوقوف عندها .

٥. إنَّ الذي ينعم النظر في النهج العلوي يخرج بفكرة مؤداها أن النص يؤدي وظيفته الإبلاغية أولاً ، ثُمَّ يبرهن ذلك النص عن جدارة بلاغية ثانياً .

٦. لا نرى فرقاً عند الإمام (عليه السلام) بين النص المكتوب ، والمرتجل، فكلاهما في غاية الروعة والاتقان في الصياغة اللفظية والمعنوية ، وهذا دليل تميزه عن الآخرين ، تميز رجل موهوب في عالم العقول .

٧. إنَّ شخصا مثل الإمام علي (عليه السلام) تنثال الألوان البلاغية منه انثيالاً لا تراه يندمج في هذه المظاهر البلاغية من أجل البلاغة ، بل إنَّ الأفكار والمعاني التي صاغها في

قوالب لفظية خرجت منها العديد من الفنون مثل الفلسفة ، والمنطق ، والطب ، وغيرها ، فكانت البلاغة من ضمن تلك الفنون ، بمعنى آخر هو ليس مثل الآخرين الذين يخلقون جماليات نصوصهم في أطر البلاغة ، وإنما الأصالة والتجديد متجذرة في أصل فكره ، ومثُمَرة في قوالب ألفاظه تتوافق مع حركات النفس ، وتتلاءم مع حدود العاطفة في جميع الاختصاصات ، فمن يسمع كلامه يعتقد أن الكلام قيل في اختصاصه ، لكن الحقيقة تقول ان نهج البلاغة هو لجميع موضوعات الحياة .

٨. إنَّ الذاكرة القوية للإمام تتمثل بالقدرة الهائلة على اختزال أحوال الناس والطبيعة ، ودقائق الأشياء ، وإحاطته بالأمور الباطنة قبل الظاهرة هي التي اسهمت في تكوين تلك الذائقة الجمالية ، التي نسجت المجاز المرسل في أشكال مختلفة ، ومزجته مع ألوان بلاغية أخرى حسب قوة ذلك المظهر البلاغي ، والموضوع الذي قيلت من أجله ، ولذلك فإن هذه الدراسة المتواضعة جاءت لتكشف عن بعض من القيم الجمالية التي يتحلى بها النهج العلوي .

هوامش البحث

(١) مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ، ١٩٧٩م : مادة (جوز) .

(٢) لسان العرب: لابن منظور ، محمد بن مكرم (ت٧١١هـ) ، راجعه وصححه نخبة من الأساتذة المختصين ، د. ط ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٣م: مادة (جوز) .

(٣) أسرار البلاغة : للجرجاني ، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت٤٧١هـ) ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ط١، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٩١م : ٣٥١-٣٥٢ .

(٤) مفتاح العلوم : للسكاكي ، يوسف بن أبي بكر (ت٦٢٦هـ) ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠م : ٤٦٨ .

(٥) مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري (ت٢٠٩هـ) ، تحقيق : محمد فؤاد زكي، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٨١هـ : ٣٦/١.

(٦) ينظر : كتاب الحيوان : للجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، ط١، مطبعة مصطفى البابي وأولاده ، مصر ، ١٩٤٠م : ٥/ ٤٢٥.

(٧) ينظر : تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق : السيد أحمد صقر ، ط٢، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٧٩م: ١٤٢ – ١٤٧.

(٨) ينظر : كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٦م : ٣٣٨.

(٩) ينظر : بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار(ت٤١٥هـ) ، د. عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي، د.ت : ٣١٥ – ٣٣٢.

(١٠) أسرار البلاغة : ٤٠٨.

(١١) ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : للزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ) ، صححه : محمد عبد السلام شاهين ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٥م : ١٥/٣.

(١٢) مفتاح العلوم : ٤٦٨.

(١٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لأبن رشيق القيرواني ، الحسن (ت٤٥٦هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٤، دار الجيل للنشر والتوزيع والطبع ، بيروت ، ١٩٧٢م : ٢٦٥/١.

(١٤) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، ابن يعقوب المغربي (ت١١٦٨هـ) ، تحقيق : خليل إبراهيم خليل ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣م: ٣١/٤.

(١٥) الإمام علي عليه السلام صوت العدالة الإنسانية : جورج جرداق ، ط١، دار المهدي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، ٢٠٠٣م : ١٨/١.

(١٦) ينظر : عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح : للسبكي بهاء الدين ، أحمد بن علي (ت٧٧٣هـ) ، تحقيق : د.عبد الحميد هنداوي ، ط١، المكتبة العصرية ، بيروت، ٢٠٠٢م: ١٣٤/٢ .

(١٧) شرح نهج البلاغة : للمعتزلي ابن أبي الحديد ، عبد الحميد بن محمد (ت٦٥٦هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د.ت : ١٩١/١٠.

(١٨) البحث في الجوهر قراءة موضوعية في شعر مانع العتيبة : د. عبد الرحمن عبد السلام ، ٢٠٠٠م : ٤٦٨.

(١٩) شرح نهج البلاغة : ١١٥/١٠.

(٢٠) المصدر نفسه : ١٥١/١١.

(٢١) شرح نهج البلاغة : للبحراني ابن ميثم ، ميثم بن علي (ت٦٧٩هـ) ، ط١، منشورات الفجر، بيروت ، ٢٠٠٩م : ٤١/٤.

(٢٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة : للخوئي حبيب الله الهاشمي (ت١٣٢٤هـ) ، تحقيق : علي عاشور ، ط١، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠٨م : ٢١٢/١٤.

(٢٣) مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية ، د. محمد حسين علي الصغير ، دار المؤرخ العربي، بيروت ، د.ت : ١٤٧.

(٢٤) ينظر : عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح : ١٣٧/٢ .

(٢٥) شرح نهج البلاغة : ١٧١/٧.

(٢٦) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٤٠٥/٣.

(٢٧) شرح نهج البلاغة : ١٧١/٧.

(٢٨) المصدر نفسه : ٢٤٤/٣.

(٢٩) المصدر نفسه: ١٨٨/١٠.

(٣٠) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية : د. مجيد عبد الحميد ناجي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٤م : ٢٠٨.

(٣١) ينظر : البرهان في علوم القران : للزركشي بدر الدين ، محمد بن عبدالله (ت٧٩٤هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط١ ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه ، بيروت ، ١٩٥٧م : ٢٧٠/٢ .

(٣٢) شرح نهج البلاغة :١١٦/٩.

(٣٣) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٦٠٩/٣.

(٣٤) شرح نهج البلاغة: ٥١/١٧.

(٣٥) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٥/ ٣٤٦.

(٣٦) خصائص الأسلوب في الشوقيات : محمد الهادي الطرابلسي ، منشورات الجامعة التونسية ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، ١٩٨١م : ٢٠٨.

(٣٧) شرح نهج البلاغة : ٨٢/١٣.

(٣٨) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٤/ ١٠٢.

(٣٩) ينظر : البرهان في علوم القران : ٢٦٩/٢ .

(٤٠) شرح نهج البلاغة : ٧/ ٢٢١.

(٤١) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٥٣٠/٣.

(٤٢) شرح نهج البلاغة : ٧/ ٢٠٠.

(٤٣) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٥٢٣/٣.

(٤٤) شرح نهج البلاغة : ١٣/ ١١٦.

(٤٥) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ١٣٢/٤.

(٤٦) ينظر : المطول ، شرح تلخيص مفتاح العلوم : للتفتازاني سعد الدين ، مسعود بن عمر (ت٧٩٢هـ)، تحقيق : د.عبد الحميد هنداوي ، ط٣، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠١٣م : ٥٧٦.

(٤٧) شرح نهج البلاغة : ١٥٢/٣.

(٤٨) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٣٠٤/٢.

(٤٩) بلاغة الخطاب وعلم النص : د. صلاح فضل ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٢م : ١٣٨.

(٥٠) شرح نهج البلاغة : ١٣/ ١٨٠.

(٥١) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٤/ ١٧٩.

(٥٢) شرح نهج البلاغة : ١٧٥/٢.

(٥٣) من بلاغة الإمام عليعليه السلام في نهج البلاغة (دراسة وشرح لأهم الصور البلاغية) ، عادل حسن الاسدي ، ط١ ، مطبعة رسول ، إيران ، ٢٠٠٦م : ١٩٧.

(٥٤) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢/ ٢٧٤.

(٥٥) ينظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : ١٣٨/٢.

(٥٦) شرح نهج البلاغة : ١٧٤/٢.

(٥٧) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٢٥٣/٢.

(٥٨) شرح نهج البلاغة : ٩٧/١٦.

(٥٩) المصدر نفسه : ١/١٣

Abstract

The main goal of this study is to showcase the aesthetic values contained in Nahj Al-Balagha by exploring its wide horizons and enriching the subject of rhetoric with new forms and images that did not exist in other books, as they characterized no other book but Nahj Al-Balagha. Imam Ali mastered the use of rhetorical forms in his speech to the fullest extent that such forms raced to his thought one after the other to book their place amongst the topics of religious and earthly life. One of those rhetoric forms is synecdoche, in its various parts. Due to this form great importance and high status, it was used by the Imam at many places without interruption of the text or its meaning. Al-Imam wanted it to represent his ideas, aspirations, and desire of righteousness of people, and manifest the elegance of his speech and the beauty of his meanings. Therefore the title "Beauty of Synecdoche in Nahj Al-Balagha" was chosen for this study.